



الإمكان أو الوجوب ليس مثل مشاهدته بنفسه. ولكن السير العقل يفتح باب اليقين بإِ تعالي بدلالة عرضية أو لنقل من استشفاف خلفي، كمن يسير في طريق والشمس من خلفه سيرى ظله أمامه فيعرف نفسه ويعرف أنه لولا الشمس لما كان له ظل، ثم شيئاً فشيئاً يصرف وعيه عن الظل ويلاحظ نفسه ثم ينتبه أنه لولا الشمس لما كان له وعي.

الثانية: التنازل عن الأناية بالتدرج، ولغرض تقريب التصور نشبهه بشخص وقع في البئر على وجهه، ثم ألقي إليه حبل ربطه في ظهره وسُحِبَ إلى الأعلى ووجهه إلى الأسفل، وأثناء سحبه إلى الأعلى صار ينظر إلى جوانب البئر التي كان فيها والتي اجتازها أثناء السقوط السريع، فهو لم يكن ليصعد من تلقاء نفسه لولا الحبل، وما كان بإمكانه النظر إلى الأعلى لأنه ينظر إلى الأسفل. والإدراك في المرتبة السفلى لا يمكنه الإحاطة بما فوقها؛ لأنه يدرك السفلى بالعليا ولا يمكن إدراك العليا بالسفلى، إلا على نحو التشبيه.

فعملية الخلق هي تنزّل لنور اِ من مقام إلى مقام حتى خُلِقَ هذا الجسد، فكيف نرجع في طريق خطوات التنزل؟ يكون ذلك ليس بحركة الإنسان نفسه، بل بتنازله عن المراتب المتنزلة شيئاً فشيئاً، وكلما قشّر الإنسان شيئاً من أنانيته كلما برزّ النور الإلهي الذي هو في باطنه ثم يتسلسل حتى يرى لحظة ولادته وبروزه في عالم الإمكان، ثم تختفي مداركه الشخصية حتى يكون الوعي بنور اِ عز وجل.

والطريقان -بتدبير اِ تعالي ولطفه- طريق واحد، والخلق يتجه إلى يوم القيامة [كما بدأنا أول خلق نعيده) والأرض تنقص من أطرافها والظل يُقْبِصُ قَبْضاً يسيراً] وشمس الحقيقة تتحول من الشرق إلى المغرب، وما على الإنسان سوى أن يبلغ أقصى ما يمكنه عمله ويصعد إلى أعلى الطور ثم من هناك إذا شاء اِ أن ينزع عنه أنانيته ويقلبه لباطنه ناداه [فَلَمَّسَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَأْمُوسَىٰ إِذْ نَزَّىٰ أَرْجَا اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ] (القصص : 30) (راجع معالم هذا المستوى في كتاب عواطف الآملين في سورة القصص المباركة).